نقد تاريخ التمدن الاسلامي

﴿ بقلم الشيخ شبلي النعماني ﴾

٣

﴿ جور العمال ﴾

ذكر المؤلف تحت هذا العنوان أنواعاً من الجور والشدة الصادرة من عمال بني أمية ونحن نذكر بعضاً منها مع كشف الحقيقة

قال بذكر جور العمال « واذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤديها في خراجه يقطع الجابي منها طائفة ويقول : هذا رواجها وصرفها » (الجزء الثاني صفحة ٢٢ واستند في الهامش الى كتاب الخراج لابي يوسف صفحة ٦٢)

أيها الفاضل المؤلف ! أليس لك وازع من نفسك ؟ أليس لك رادع من ديانتك ؟ أتجرئ على مثل هذا الكذب الظاهر ؟ والمين الفاحش جهرة ؟ فان القاضي أبا يوسف ما تكلم في شأن عمال بني أمية ببنت شفة وانما ذكر عن عمال هارون الرشيد واساتهم العمل في جباية الخراج وكتاب الخراج لابي يوسف بين أيدينا وقد طبع في مصر ومداولته الايدي ومناقشته الالسن . قال المؤلف

« وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما بين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الاموال بها قال : « بلغني انه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له به حرمة ، ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في أعماله ، يقضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه انما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي . . . . ويضيقون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الحجارة ويقيدونهم بما يمنعهم عن الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام (الجزء

الثاني صفحة ٢٣ و ٢٤ مستنداً الى كتاب الخراج صفحة ٦١ و ٦٢)

الله أكبر ! هل سمع أحد بأعظم من هذا التدليس والتلبيس ؟ يشتكي القاضي أبو يوسف من عمال هارون الرشيد ويرفع القضية اليه ويبين ما بلغه عما يرتكب عماله في أخذ الاموال من الرعايا ، فيأخذ المؤلف أقواله وينقلها من حيث أنها هي الطرق التي كان عمال بني أمية يجمعون الاموال بها !! هاهو كتاب الخراج بأيدينا قرأناه وقلبناه ظهراً لبطن وكررنا فيه النظر لا كرة أو كرتين بل مرات متوالية متتابعة فما وجدنا فيه كلة في شأن عمال بني أمية وأما قال ما قال أبو يوسف يعظ الرشيد بما بلغه عن عماله الى أن خاطبه بقوله

« فلو قربت الى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ولعلك لا تجلس الا مجلساً أو مجلسين حتى يسير فعلك في الامصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم . . مع أنه متى علم العمال والولاة انك تجلس للنظر في أمور الناس يوما في السنة ليس يوما في الشهر تناهوا باذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم (كتاب الخراج صفحة ٦٣ و ٦٤)

لا نفض فوك يا أبا يوسف ! فقد صدعت بالحق وأمرت بالمعروف واجترأت على النهي عن المنكر وأخذت على ملك جبار كهارون الرشيد صاحب الشكيمة والهامة ، وما أكبر جرأتك أيها الفاضل ؟! (جرجي زيدان) أنك تتبعت سيرة عمال بني أمية وبالغت في الامعان وكابدت في ذلك محنة التقصي فأعوزك كل هذا وما وجدت في أعمالهم شيئاً من مثل تلك الفظائع فعمدت الى سيرة عمال الرشيد وأوهمت القارئين أنها سيرة عمال بني أمية !

قال المؤلف « وكان العمال لا يرون حرجا في ابتزاز الاموال من أهل البلاد التي فتحوها عنوة لاعتقادهم أنها لهم كما تقدم (الجزء الرابع صفحة ٧٥)

الذي أشار اليه بقوله « تقدم » هو قوله في الجزء الثاني وهذا نصه :

« وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم أنهم اعتبروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقا حلالا لهم ... يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق : ما السواد الا بستان قريش ماشئنا أخذناه منه وما شئنا تركناه وقول عمرو بن العاص لصاحبا حتا لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو : انما أنتم خزانا فان كثرنا علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم (الجزء الثاني صفحة ١٩)

تشبث المؤلف بهذه الاقوال في غير موضع مستدلا على أن العرب وبني أمية كانوا يتصرفون في أموال الناس كيفما شاءوا ظناً منهم ان أموالهم واعراضهم ابيحت لهم مطلقا

حقيقة القول انه لما فتحت البلاد في خلافة الفاروق تقدم بعض الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وبلال وغيرهما وقالوا : ان الارض مقسومة بيننا كما قسم رسول الله خيبر وكان الفاروق رأى غير هذا فقام النزاع حتى وفق الى الاستناد بنص القرآن فسكتوا ورضوا والقصة مذكورة بتفاصيلها في كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف . ثم ان بعض البلاد فتحت صلحاً فمتى كان الخراج أو الجزية شيئاً مسمى معيناً ما كانوا يرون الزيادة عليه وان اكثرت الارض خيراتها وزادت غلاتها . وفتح بعضها عنوة فكان الخراج أو الجزية عليها بقدر النقص والزيادة وهذا هو قول عمرو « ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » وقد اشار الى ذلك المقريزي في تاريخه والعلامة السيوطي في حسن المحاضرة . فأما قول سعيد بن العاص الذي استند اليه المؤلف فتحريف للكلام عن موضعه على جاري عادته فان المؤلف نقل هذه الرواية من الأغاني والمذكور فيه ما حاصله « ان أحدا مدح السواد عند سعيد بن العاص وبالغ فيه فقال بعضهم : نعم وياليته كان لاميرنا ، فقال بعض من حضر : لا نعط أرضنا للامير فقال الرجل : ولو شاء الامير لاخذه ، فأنكروا قوله فقال سعيد بن العاص « السواد بستان قريش الخ » فقال الرجل لا ! انه مناع رماحنا فأنت ترى ان النزاع بين الجند وأمير البلد هنا هو النزاع الذي كان بين بعض الصحابة وعمر الفاروق وأي متشبث في ذلك للمؤلف ؟ فان سعيد بن العاص قال ما قال رداً على الجند بدعوى ان الارض لا تقسم بين فاتحي البلاد بل هي تحت يد الخليفة أو من ينوب عنه وانما ذكر سعيد قريشاً لان الخلافة على زعمهم لقريش خاصة ،

*

قال المؤلف « فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها والعمال لا يبالون كيف يجمعونها فقد كتب معاوية الى زياد « اصطف لي الصفراء والبيضاء » فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم ان يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة » (الجزء الرابع صفحة ٧٥ واحال الرواية في الهامش على العقد الفريد صفحة ١٨ من المجلد الاول)

تنقل مأخذ هذه الرواية كما صرح به المؤلف في الهامش لترى خيانات المؤلف واحدة بعد واحدة ، قال صاحب العقد

« ونظير هذا القول مارواه الاعمش عن الشعبي ان زيادا كتب الى الحكم بن عمرو الغفاري وكان على الطائفة ان امير المؤمنين كتب اليّ ان اصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة فكتب اليه «اني وجدت كتاب الله قبل كتاب امير المؤمنين » الخ ما كتب ثم نادى في الناس فقسم لهم ما اجتمع من الفيء » (العقد الفريد المجلد الاول صفحة ١٧ أو ١٨)

فانظر ! (اولا) انه ليس في هذه الرواية ان معاوية كتب الى زياد بل ان زياداً كتب الى الحكم ان امير المؤمنين كتب اليّ الخ ولعل زيادا كذب في ذلك أو فهم غير ماأراد معاوية بقوله »

(ثانياً) ان المؤلف حذف كل ماقال الشعبي وما عمل به من تقسيم الفيء لدلالته على ان في عمال بني أمية من لايمنعه عن الصدع بالحق واداء الواجب أحد ، لا ولاة الامصار ولا من فوقهم اي الخليفة نفسه

(ثالثاً) انه ليس في هذه العبارة مايستدل به على استئثار معاوية بالمال لنفسه فان مراده ان العمال ليس لهم تقسيم الفيء بل الامر موكول الى الخليفة فعلى العامل ان يجمع الاموال ويرسلها الى الخليفة وللخليفة أن يضعها موضعها »

قال المؤلف « فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال باية وسيلة كانت ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمها في أول الاسلام الجزية لكثرة أهل الذمة فكان عمال بني أمية يشددون في تحصيلها فأخذ أهل الذمة يدخلون في الاسلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم. وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف واقتدى به غيره من عمال بني امية في افريقية وخراسان وما وراء النهر فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه وخصوصاً أهل خراسان وما وراء النهر فانهم ظلوا الى أواخر أيام بني أمية لايمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم » (الجزء الرابع صفحة ١٦)

ذكر المؤلف هذه الواقعة أي أخذ الجزية بعد الاسلام في غير موضع بعبارات متنوعة قوية الاخذ بالنفس شديدة الوطأة على القلب يتراءى للناظر فيها ان الناس أحيطوا من كل جانب جوراً وعدوانا فاذا بقوا على الكفر يعانون من الشدة مايلجئهم الى الاسلام واذا أسلموا فالجزية باقية على حالها لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون »

﴿ تحقيق مسألة الجزية في الاسلام ﴾

١ — اعلم ان الجزية ليست الا بدلا عسكريا فمن يذب عن بيضة الملك بنفسه فهو غير مأخوذ بها اما من ضن بالنفس أو كان لا يصلح لذلك فعليه ان يؤدي شيئا من المال ليكون عدة للعسكر وعونا له . وأول من سن الجزية وجعل لها وضائع كسرى انوشروان كما ذكره ابن الاثير وصرح بأنها هي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب ، وكم نجد في البلاذري والطبري وغيرهما ان أقواما من النصارى في عصر عمر بن الخطاب لما قاموا بالدفاع عن الملك أو دخلوا في الجند سقطت عنهم الجزية واعفى عمر بن الخطاب نصارى تغلب من الجزية وأضعف عليها الصدقة . وجملة القول ان الجزية لم تكن في الاصل شيئاً يحدد بين الكفر والاسلام ولكن لما كان غالب الحال ان أهل البلاد من النصارى والمجوس واليهود كانوا اصحاب حرث وزرع وعمالا في الديوان وكانوا لا يرضون بمخاطرة النفس واقتحام الحرب لذلك كانوا مطالبين بالجزية والمسلم لا يمكن له الاعتزال عن الحرب فانه مضطر الى الذب عن بلاد الاسلام طائعا او مكرها — صارت الجزية كأنها حد فاصل بين الرئيس والمرءوس ثم بين المسلم وغير المسلم .

٢ — ولما لم يتفصل الامر بنة ربي للاجتهاد موضع ومتسع كان بعض العمال يضرب الجزية على حديثي العهد بالاسلام

٣ — ولكن مع هذا لم يتفق ذلك في مدة الخلافة الاموية الا مرات معدودات يشهد بذلك الفحص والتقصي واسرار النظر والكد في البحث والتنقيب ومع ذلك فكلما وقع مثل هذا لم يكن له بقاء فاما أن تكون الامة هي التي تقيم النكير على العامل أو يصل الخبر الى الخليفة فيرد عمله ويمنعه عن الوقوع في مثله آنيا ففي سنة ١٠١ لما كتب الحجاج الى البصرة يزيد من أسلم من أهل القرى الى مساكنهم وضرب الجزية عليهم ضج القراء وخرجوا يبكون مع البكاة من أهل القرى وبايعوا عبد الرحمن بن الاشعث مصممين من عمل الحجاج منكرين عليه كما هو مشروح في تاريخ الكامل لابن الاثير وكذلك لما اقتدى الطراح الحكمي بصنيع الحجاج كتب اليه عمر بن عبد العزيز يأمره بإسقاط الجزية والواقعة مذكورة في حوادث سنة ١٠٠ في تاريخ الكامل وكذلك لما فعل يزيد بن أبي مسلم في أفريقية سنة ١٠٢ هجرية ألب الناس عليه وقتلوه وكتبوا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك فكتب اليهم

اني ما كنت مستحسنا عمل يزيد والقصة مذكورة في الكامل تحت حوادث سنة ١٠٢ وكان آخر ما وقع من مثل ذلك ما فعل الأشرس في خراسان فأورث ثورة واشتراك العرب مع الثائرين ونصروهم أما خلفاء بني أمية فلم يثبت عن أحد منهم مثل ذلك وانما كان أراد عبد الملك وضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة فتركه . والقصة مذكورة في المقريزي بنوع من التفصيل (انظر صفحة ٢٨ من الجزء الاول) . والآن نقص عليك بعض خيانات المؤلف

(١) ذكر واقعة الحجاج وترك نكير القراء عليه وبعثهم على يد ابن الاشعث انكاراً على صنيع الحجاج

(٢) ذكر واقعة الجراح (الجزء الثاني صفحة ٢٠) وترك انكار عمر بن عبد العزيز عليه ومنعه عن ضرب الجزية عليهم

(٣) ذكر واقعة يزيد بن أبي مسلم وترك ان الناس قتلوه وان الخليفة يزيد ابن عبد الملك استصوب صنيعهم أي قتلهم يزيد بن أبي مسلم

(٤) ذكر واقعة الأشرس ولم يذكر أن العرب قاموا عليه وكانوا مع الثائرين عليه ولما ثبت ان ضرب الجزية على حديثي العهد بالاسلام لم يأمر به أحد من خلفاء بني أمية وانما كان اجتهاداً من بعض العمال بناء على أن اسقاط الجزية يورث نقصا في الخراج وان الخلفاء كلما عثروا على ذلك منعوا العمال عن ضرب الجزية وردوا عليهم وانه كلما وقع مثل ذلك ثار الفقهاء والخيار من الناس وأقاموا النكير على ضارب الجزية حتى قتلوا بعض العمال واستحسن الخليفة قتله، فهل للمؤلف أن يحمل أوزار بعض العمال على بني أمية كافة ؟ وهل يسمع قوله

« ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الاعمال من عند أنفسهم دائماً بل كثيرا ما كانوا يفعلونها بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان » (الجزء الثاني صفحة ٢٢)

أما كتاب معاوية الى وردان فقد مر ذكره وليس فيه للمؤلف موضع حجة قال المؤلف « ورأى هؤلاء (اي أهل الذمة) أن اعتناق الاسلام لا ينجيهم من ذلك فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لان الرهبان لا جزية عليهم . فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان . وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان وفرض على كل راهب ديناراً » (الجزء الثاني صفحة ٢٠ مستندا الى المقريزي صفحة ٣٩٢ من الجزء الثاني)

أيها الفاضل المؤلف! ماهذا الاجتراء ؟ ماهذا الاختلاق؟ ماهذا الكذب الظاهر؟ هاك نص المقريزي « ثم قدم اليعاقبة في سنة احدى وثمانين الاسكندروس فقام اربعا وعشرين سنة ونصفا وقيل خمسا وعشرين سنة ومات سنة ست ومئة ضربت به شدائد صودر فيها مرتين اخذ منه فيهما ستة آلاف دينار وفي ايامه أمر عبد العزيز بن مروان فأمر باحصاء الرهبان فاحصوا وأخذت منهم الجزية على كل راهب دينار وهي أول جزية اخذت من الرهبان » (الجزء الثاني من المقريزي صفحة ٣٩٢ أو ٣٩٤)

فهل تجد في هذه العبارة ادنى اشارة الى ان عبد العزيز أو أحداً غيره شدّد في الجزية فاختاروا الرهبنة طلباً للنجاة من الجزية فما نفعهم ؟ لا وانما فيها ان عبد العزيز بن مروان وضع الجزية على الرهبان وهذا ليس فيه كبير شيء فان الرهبان وان كانوا يعافون من الجزية ولكن لما لم يكن الامر منصوصاً لا في الكتاب ولا في السنة كان للاجتهاد فيه مساغ فاجتهد عبد العزيز وأخطأ

﴿ انتهاء هذا البحث ﴾

لو سردنا كل ما قال المؤلف عن جور بني أمية وعمالهم واستئثارهم بالاموال وإسرافهم في استلابها وبيناما في كل قول من التحريف والتدليس وتغيير المعنى والخيانة في النقل وصرف العبارة عن وجهها لطال الكلام واحتجنا الى عمل كتاب منفرد بنفسه فلأجل ذلك اقتصرنا على كشف بعض دسائسه مع انه قل من كل وغيض من فيض ، (١)

ونقول بعد كل ذلك ان موضوع الكتاب ليس الا بيان تمدن الاسلام فأي متعلق في ذلك لابداء مساوئ بني أمية ؟ ولعلك تقول لابد في تاريخ تمدن الاسلام

(١) ومما يناسب ذكره في هذا المقام ان المؤلف لما انجز الجزء الاول من كتابه ارسله الي فكتبت اليه بعد الاعجاب به انه لابد من ذكر مصادر الروايات في كل موضع وذلك لاجل اني كنت اخاف عليه التدليس ، فاظهر المؤلف في مقدمة الجزء الثاني انه عمل بذلك ، ويذكر الكتاب والجزء والصفحة ولكن من الاسف ان كل هذا ما اجدى نفعا فانه ما يذكر المطبعة ولاجل هذا كابدت في تطبيق مصادر كتابه محنة عظيمة فان النسخ مختلفة ولا يدري اي نسخة ارادها وبسبب ذلك ما اهتدينا الى أكثر خياناتها ومن المحقق المستيقن به انه ماتقل عبارة الا وعمل فيها شيئاً من التحريف والتغيير ومن كان في ريب من ذلك فليراجع الاصول وليكابد محنة التطبيق ليؤمن بما قلته مع حيرة واندهاش ـ ١٢

من بيان منهج السياسة وانها هل كانت مؤسسة على الاستبداد والجور أو العدل والنصفة فجر ذلك الى كشف عوار بني أمية عرضا . ولكن أناشدك بالله اما كان لاحد منهم مأثرة تذكر، ومنقبة تنقل، وسياسة تنفع البلاد، ومعدلة تعم الناس؟؟ نعم ان بني أمية لايوزنون بالخلفاء الراشدين وليس هذا عاراً عليهم ولا فيه حط لمنزلتهم فان ادراك شأو الراشدين واللحوق بهم أمر خارج عن طوق البشر، وليس فيه مطمع لاحد، ولا موضع رجاء لمجتهد، ولكن التوازن والتكايل بين الاموية والعباسية وانما هم ملوك فيهم المحسن والمسيء، والعادل والجائر، والناسك والخليع، والحازم والمغفل، بل الذي اعدهم سيرة واشبههم طريقة وأوفاهم ذمما وأرضاهم طورا لايخلو من عثرات لاتقال وهفات لاتذكر — فلو لزم المؤلف جادة الانصاف ووفى لكل أحد قسطه وأعطى كل ذي حق حقه لاستراح واسترحنا ولكنه مال الى واحد فأطرى في مدحه، ونال من الآخر فاسرف في تهجينه وذمه، ثم انه لم يفارق في مدحه وذمه عمود الكتاب أي ذم العرب والحط من شأنهم فانه ذم بني أمية لانهم العرب بحتة ومدح العباسيين لالانهم العرب أوانهم من سلالة هاشم اومن اقرباء النبي (ص) بل لان دولتهم دولة أعجمية وقد مر نصه في ذلك سابقا

وحان لنا أن نذكر طرفا من مآثر بني أمية وسيرتهم ومبلغهم من حسن السياسة وتسيير البلاد وتمهيد السبل وتوطيد الامن واقامة المرافق وتعميم المعارف

اعلم ان دولة بني أمية عبارة عن معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام فأما ماعداهم فلم تطل مدتهم وليس العبرة بهم إن أحسنوا أو أساءوا

﴿ سيرة معاوية في دولته ﴾

فأما معاوية فنذكر من سيرته ما ذكره المؤرخ المسعودي في مروجه مع نوع من الاختصار قال :

« كان من أخلاق معاوية انه كان يؤذن في اليوم والليلة خمس مرات ، كان اذا صلى الفجر جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه فيخرج الى المسجد فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم الاحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول : ظلمت، فيقول : أعزوه، ويقول : عدي الي، فيقول : اعزوا منه، ويقول : صنع بي، فيقول : انظروا في أمره، حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس

على السرير ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم فاذا استووا جلوساً قال : يامولاه انما سميتم أشراناً لانكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا الينا حوائج من لايصل الينا ، فيقوم الرجل فيقول: شهد فلان ، فيقول: افرضوا له ، ويقول آخر: غاب فلان عن اهله ، فيقول : تعاهدوهم واقضوا حوائجهم ، ثم يؤتى بالغداء والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه حتى يأتي على اصحاب الحوائج كلهم وربما قدم اليه من اصحاب الحوائج اربعون او نحوهم على قدر الغداء »

واطال المسعودي في بيان اعمال معاوية يوميا ثم قال بعد حكاية معترضة « فلنرجع الآن الى اخبار معاوية وسياسته وما وسع الناس من اخلاقه وما افاض عليهم من بره وعطائه وشملهم من احسانه مما اجتذب به القلوب واستدعى به النفوس حتى آثروه على الاهل والقرابات » ثم ذكر بعد ذلك عدة وقائع تركناها هربا من الاطناب

﴿ سيرة عبد الملك بن مروان في دولته ﴾

وأما عبد الملك فقال المدايني « كان يقال معاوية احلم ، وعبد الملك احزم ، وهو الذي جعل على بيوت الاموال والخزائن رجاء بن حياة ذلك المحدث المشهور وعلى كتابة الخراج والجند سرجون بن منصور الرومي (وهو نصراني) وحول الدواوين من الرومية والفارسية الى العربية وزاد على ما كان فرض معاوية للموالي خمسة فبلغها عشرين ودخل في بيعته عبد الله بن عمر ومحمد بن الحنفية » ذكر كل ذلك صاحب العقد في ترجمته وقد سبق من نسكه وعبادته ما فيه كفاية فيما مر

وما يقدم عليه تأمره الحجاج ولكن الدولة تحتاج في إتمامها واول نشأتها الى أمثال ذلك وهذا ابو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية قتل ستمئة الف رجل صبراً وهذا ابو جعفر المنصور فعل بالهاشميين ما لم يسبق له نظير في الاسلام ومع ذلك فاني اعوذ بالله ان اقوم ذاباً عن الحجاج ومدافعاً عنه .

﴿ سيرة الوليد في دولته ﴾

وأما الوليد فكان أهل الشام يفتخرون به وحق لهم ذلك قال صاحب العقد الفريد « كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلفائهم وأكثرهم فتوحا ، وأعظمهم نفقة في سبيل الله ، بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة ووضع المنابر واعطى المجذومين حتى اغناهم عن سؤال الناس واعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائداً ، وكان يمر بالقتال

فيتناول قبضة فيقول : بكم هذه ؟ فيقول بفلس فيقول: زد فيها فانك تربح » وهو الذي وسع مسجد النبي وذهب البيت

قال اليعقوبي « ان الوليد بعث الى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد رسول الله فليبعث فيه فبعث اليه بمئة الف مثقال ذهبا ومئة فاعل واربعين حملا فسيفساء ، وبعث الوليد الى خالد بن عبدالله القسري وهو على مكة بثلاثين الف دينار فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة ، فكان أول من ذهب البيت في الاسلام وحج الوليد سنة ٩١ لينظر الى البيت والى المسجد وما أصلح منه والى البيت وتذهيبه »

وقال اليعقوبي « كان أول من عمل البيمارستان للمرضى ودار الضيافة ، وأول من أجرى على العميان والمساكين والمجذومين الارزاق »

وقال السيوطي في تاريخه للخلفاء « وكان مع ذلك (أي كونه جباراً ظلوما) يحتفل الايتام ويرتب لهم المؤدبين »

﴿ فتوحات بني أمية ﴾

ثم ان الدول تعرف اقدارها بآثارها ويقضى بفضلها بعملها واخذ الآثار التي تتفاضل بها مقادير الملوك وتتطاول بها رتب الدول كثرة الفتوح واستتباب أمور الملك والرعية وتولد دعائم العدل وانتشار العلم ودولة بني أمية قد أخذت من كل ذلك قسطا وضربت في كل ذلك بسهم

أما كثرة الفتوح فقد بلغت دولتهم منها غاية ليس وراءها مطلع لطامح . انقضت ايام الخلافة الراشدة والاسلام يزخر عبابه في جزيرة العرب وديار الشام ومصر وبلاد الفرس فلما تسنم بنو أمية عرش الخلافة ازداد الاسلام فتوحا ، واتسعت ممالكه وغلب سلطانه ، واشتدت سطوته ، ودخلت البلاد النائية المترامية الاكناف في حوزة حكمه ، فملكوا مالم يملكه أحد من ملوك الاسلام قبلهم ولا بعدهم . فتحوا طرابلس وطنجة وسائر بلاد المغرب والاندلس وبلاد الديلم والاتراك والخزر والسند وقبرص واقريطش (كريد) ورودس وغيرها من جزائر البحر . وغزوا صقلية وصالحوا التوبة ونزلوا في بلاد الروم حتى بلغوا سور القسطنطينية وضربوا السيف على أبوابها ، وافتتح السند محمد الثقفي أحد أبناء قوادهم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقد وطئت جيوشهم ثغور الصين وثغور بلاد الافرنج وعاصمة بلاد الروم ، وحدود بلاد الهند ، وملكوا من السند الى ثغور بلاد الافرنج طولا ومن البحر الاحمر الى بلاد الخزر عرضا ،

ودخل في حوزة ملكهم العرب وديار الشام والعراق والجزيرة ومصر والبجة وبرقة وطرابلس وتونس ومراكش والاندلس وارمينية وخراسان وفارس وتوران والديلم وبلاد الران وطبرستان وجرجان وسجستان وخوارزم وما وراء النهر وبلاد الخزر وافغانستان والسند وبعض بلاد الهند . فمن يدانيهم من الملوك في سعة الملك ؟ ومن يباريهم في كثرة الفتوح ؟

﴿ استتباب امور الملك والرعية ﴾

ليس في سعة الملك كبير فضل اذا لم يكن هناك تأنق في أمور المملكة ، ونظر في أمور الرعية ، وقيام بمصالح العباد ، وتشمير في عمارة البلاد ، ولذلك كان الذين فتحوا البلاد ولم ينظروا في أمور أهلها ليسوا عند ذوي الخبرة من أهل التاريخ اسمى منزلة واعلى مكانة من قطاع الطريق الذين يعيثون في الارض مفسدين . أما ملوك بني أمية فقد جمعوا بين سعة الملك والنظر في أمور العباد ، وكثرة الفتوح وعمارة البلاد ، حفروا الانهار ، وعمروا الطرق ، وشادوا المصانع ، وابتنوا المساجد ، وبذلوا الاموال ، وقضوا الحوائج ، وكشفوا المظالم ، وغمروا المجذومين والعميان والمقعدين والصعاليك بالجزيل من الاحسان ، واجروا لهم الارزاق . ثم رتبوا المصالح ودونوا الدواوين وحصنوا الحصون وبنوا المدن والقصور وقد مر من ذلك شيء كثير فيما تقدم من سيرهم واعمالهم واليك هذه السجالة التي هي كالطل من الوابل (يتلى)